سينما

«الجنّة تحت أقدامي» لساندرا ماضي

توثيق حكايات تعجز السينما عن تخيّلها

تروي ساندرا ماضي حكايات ثلاث نساء لبنانيات مع قضايا متشابهة تتعلّق بمنع الحضانة عنهنّ بأسلوب مبسّط لشدّة الألم وقسوة العيش والخيبات.

نديم جرجوره

يوثّق «الجنّة تحت أقدامي» (2020، 90 دقيقة)، للفلسطينية ـ الأردنية ساندرا ماضي، حكاية واحدة بألسنة 3 شخصيات نسائية أساسية. حكاية ظلم يُصيب أمّاً مُطلّقة، تُمنع من حضانة ابنها بعد طلاقها. قوانين دينية لدى الطائفة الشيعية في لبنان غير معنيّة بأم وابنها، فالأحكام تصدر لصالح الأب. تحديد الطائفة الشيعية يَرِدُ في تقديم الوثائقي الجديد هذا، إذْ تقول الراوية إنّ النساء المختارات ينتمين إلى هذه الطائفة «التي تكثر الشكاوى من محاكمها الدينية، ويرتفع صوت النساء من أروقة هذه المحاكم عالياً»، مع تنبيهها إلى أنّ الصوت يعلو، لكنْ «من دون جدوى في التغيير».

قبل هذا، تصف الراوية لبنان بـ«البلد العربي ذي الطبيعة الخلابة». تقول إنّه «صغيرٌ بمساحته الجغرافية، وكبير بتناقضاته الاجتماعية والسياسية». تُضيف أنّه يُفاخر دائماً بكونه «رائداً في الانفتاح، وسبّاقاً في صون وحماية الحريات، مقارنةً بالدول العربية الأخرى». ورغم هذا، تكشف «نظرة فاحصة إلى واقع المرأة اللبنانية في قوانين الأحوال الشخصية واقعاً مُظلماً، مليئاً بالقصص المروِّعة».

القصص تُختزل بمسألة منع المرأة من حضانة ابنها. المعاناة التي تعيشها النساء، بسبب هذه المسألة، متشابهة، لكنّ أحداثاً وتفاصيل ومسالك تشي باختلاف، يتّضح في كيفية تعامل المرأة مع المسألة: السفر إلى ألمانيا (منطقة «بومهولدر») لفضح تزوير يُجريه طليقها ليتمكّن من إدخال ابنهما إلى ذاك البلد بعيداً عن أمّه؛ إصرارٌ على عدم تنفيذ المفروض عليها، للاحتفاظ بابنها رغم إدخالها السجن؛ عجزٌ (وقهرٌ وألم وتمزّق) عن تنفيذ قرار قضائي بإتاحة وقتٍ للأمّ للقاء ابنها. تُغادر لينا عرار بلدها إلى تلك المدينة الألمانية طالبةً اللجوء فيها، لعلّها تتمكّن من ترتيب علاقتها بابنها، الذي يرفضها لكثرة ما قيل من سوء عنها أمامه. فاطمة حمزة (الضاحية الجنوبية لبيروت) تُسجن «تنفيذاً لقرار قضائي، بعد رفضها التنازل عن حضانة ابنها، وتسليمه إلى أبيه بعد بلوغه السنتين»، وفعلها هذا يُصبح لاحقاً «قضية رأي عام». زينب زعيتر (قرية «إيعات» . بعلبك) تُحاول، منذ أعوام، تنفيذ قرارات قضائية تُجيز لها «رؤية» ابنها، لكنْ من دون جدوى، «فالجهات الأمنية المختصّة بتنفيذ القرارات» غير مهتمّة البتّة بقضايا كهذه.

هذا يُشكّل نواة درامية لـ«الجنّة تحت أقدامي». تحمل ساندرا ماضي، رفقة صديقتها عبير هاشم (منتجة الفيلم عبر «سولو للأفلام»)، كاميرا وأسئلة وهواجس، وإنْ تصمت غالباً أمام تصرّفات النساء الثلاث، وأقوالهنّ وتعابيرهنّ ودموعهنّ واختناقهنّ وحيويتهنّ، وبلوغهنّ حدّ الجنون أحياناً، المنبثق من قهرٍ ومهانة. صلابة فاطمة وتماسكها الخارجيان يُخفيان هشاشةً وقلقاً وخوفاً فيها. صراخ لينا في غرفتها الألمانية تعبيرٌ عن بطش الظلامة وقسوتها، من دون التغاضي عن غضبها من بلدٍ يستضيفها، لكنّه غير متمكّن من إنصافها. ملامح زينب توهم بصرامةٍ، تفقد تماسكها سريعاً إزاء تسلّط العجز عن تحقيق نَزْرٍ يسيرٍ من حقّها.

لعبير هاشم حكايةٌ أيضاً، تُرويها في بداية الفيلم. نزاعٌ مع زوج وطلاق بعد 12 عاماً. تقف أمام قبر خالتها، وتقول إنّ (الخالة) لازمها عذاب كبير بسبب منع الحضانة عنها، لأعوام عدّة تنتهي بموتٍ ودفنٍ وقبر. ترى هاشم أنّ مسائل كهذه تحتاج إلى مالٍ وجهدٍ ووقتٍ، وإلا فالقضاء يحكم سريعاً لصالح الرجل، والنهاية «موتٌ وقبرٌ» للمرأة. قسوة التعبير تُشبه قسوة المعاناة. يصعب الإحساس بالقسوة، فالمرأة/ الأم أكثر ارتباطاً بأبنائها وبناتها، وأكثر التصاقاً بهم، وأقدر على تنشئتهم.

لا جديد في البناء الوثائقي لـ«الجنّة تحت أقدامي». ليس فيه اشتغال صادم ومختلف. الحكايات أهمّ من الصور السينمائية. الجرح أعمق وأخطر من أنْ يتفنّن الوثائقي في ابتكار لقطاتٍ ومشاهد. الوقائع أقسى من التخيّل. لذا، تكتفي ساندرا ماضي (كتابةً وإخراجاً وتصويراً وصوتاً) بالمُصوَّر، قبل توليف المختار منه (عماد ماهر)، والمختار دقيقٌ وصائبٌ في إظهار متن الحكايات وهوامشها، بما فيها من نبضٍ وألم وخيباتٍ ومواجهات وتحدّيات. التوغّل في تأثيراتٍ محكمةٍ شيعية لن يحول دون تنبّهٍ موارب إلى محاكم وطوائف أخرى، لها مع أبنائها وبناتها قضايا مشابهة. ماضي تُتيح للنساء الثلاث مساحةً واسعةً لكلامٍ نابعٍ من قلبٍ وعقلٍ وتفكير وانفعال، والمختار منه كافٍ لإثارة إضافية لمسألةٍ، تناضل نساء لبنانيات كثيرات لبلوغ حلٍّ جذريّ لها.

التقنيات المستخدمة عادية. القطع بين لقطاتٍ ومَشاهد، بأسود يحتلّ الشاشة لثوانٍ قليلة، غير مُريح. لكنّ المعاناة، المروية على ألسنة لينا وفاطمة وزينب، قاسية، والتنفّس مطلوبٌ أحياناً لراحةٍ معلّقة. الكاميرا غير راغبةٍ في تجريب سينمائيّ، وهذا مفهوم فالمسألة تحتاج إلى انتباهٍ ومتابعة، وإنْ يعرف عديدون أشياء كثيرة منها. التوثيق، بكاميرا ساندرا ماضي، إضافة ضرورية، والنساء الثلاث يحتجن إلى كل مساحة للقول والتعبير.

لينا تفضح تزويراً على شاشات تلفزيونية. فاطمة تكتب في صفحتها الـ«فيسبوكية». ساندرا ماضي تذهب إليهما وإلى زينب لمزيدٍ من تعبيرٍ، وإنْ يكن مضمونه مُكرّراً.

> لا جديد في الوثائقيّ لكنّ المعاناة النسائية قاسية

لينا عرار في غرفتها الألمانية: اي تمزّق واي خراب؟ (الملف الصحافي)

أفلام جديدة

■ Entre Les Vagues لأنايس فولبي (الصورة)، تمثيل سهيلة يعقوب وسْفيفا ألفيتي: مارغو وألما صديقتان حميمتان منذ سنين مديدة. عند بلوغهما سنّ المراهقة، تشعران بحماسة وحيوية كبيرتين لاكتشاف الحياة والعالم. يمتلكان طاقة يصعب وصفها. متمرّدتان وحالمتان وسعيدتان وراغبتان في جولاتٍ غير منتهية في الروح والجسد والعلاقات والناس والمدن والطبيعة والمشاعر.

■ Cette Musique Ne Joue Pour Personne لساميول بنشِتْريت، تمثيل فانيسا باراديِ (الصورة) وغوستاف كڤرن وفرنسوا داميان ورمزي بديا: في مدينة ساحلية (شمال فرنسا)، يعتاد سكّانها المعزولون فيها على ممارسة العنف، تدريجياً. لكنّ كلّ شيءٍ يتبدّل في سلوكهم ويومياتهم، بفضل الفنّ والحبّ، مع اهتمام صديقين بتنظيم حفلة بمناسبة عيد ميلاد الابنة المراهقة لمديرهما. هناك من يكتشف المسرح، ومن يكتب الشعر، ومن يهتمّ بالموسيقى أيضاً.

■ Un Monde للورا واندل (الصورة)، تمثيل مايا فاندِرْبك وغونتر دورت وكريم لِكْلو: تعاني نورا آثار علاقات مضطربة في عائلتها، بين شقيق يُسيء إليها ويتنمّر عليها، ووالدٍ يحرّضها بقوّة على الردّ والتحرّك والدفاع عن نفسها أمام الجميع، وسعيها إلى التأقلم مع حالاتٍ غير مريحة كلّها لها. فيلمٌ يغوص بعمق في أحوال عالم المدرسة، بالنسبة إلى طفلٍ يخطو باتجاه المراهقة.

■ After Young لكوكونادا، كتابةً وإخراجاً، تمثيل كولن فاريل (الصورة): فيلم خيال علمي، يذهب إلى مستقبلٍ قريب، يسمه وجود آلات تُشبه الإنسانَ، وتعمل في خدمة البشر. جايم وابنته يملكان «روبوت»، ينتمي إلى هذه الفئة من «الكائنات» المختلفة، ويُدعى يانغ. لكنّه، لسبب غامض، يُصبح خاملاً، ما يدفع الأبنة ووالدها إلى البحث عن أي سبيلٍ ممكن لإنقاذه.

■ The Piani لناني موريتي، إخراجاً وتمثيلاً، مع مارغريتا بويي (الصورة) وريكّاردو سْكَمارتشيو: سلسلة من الأحداث تغيّر جذرياً في حياة ساكني مبنى رومانيّا واحدا، وتكشف عن صعوبة أنْ يكونوا آباء أو إخوة وأخوات أو جيراناً أو عاشقات. هناك استياء وخوف وارتباكات، فالرجال أسرى عنادهم، بينما تحاول كل امرأة، على طريقتها، إصلاح هذه الحياة المفكّكة، وبثّ الحبّ الذي يظنّ الجميع أنّه مختفٍ نهائياً.

«قصّة حياتي يستحيل سردها»

أتَصْدُق السيرة أم تبقى «رواية رسمية»؟

رغم صدوره قبل 21 عاماً، يبقى كتاب «ألغاز دولون» («فلاماريون»، باريس، 2000)، للصحافي الفرنسي برنار فيولي (1949)، مُثيراً لمسائل عدّة: كيفية كتابة سيرة حياتية؛ التخصّص بهذا النوع الأدبي، المفقود . بشكلٍ شبه كامل . في العالم العربي؛ كيفية نبشِ وقائع، وتوليفها في سياق حكائيّ، يكشف معالم من دون إدانة أو محاكمة؛ كيفية تحويل تلك الوقائع إلى نصٍّ أدبي سرديّ روائي، أكثر من أنْ يبقى تأريخياً أرشيفياً صارماً. هذا يختلف تماماً عن كتبٍ تروي سِيَراً على ألسنة أصحابها، فتُحصَر السِيَر بـ«الرواية الرسمية»، التي تبغيها الشخصية العامّة. أمثلةٌ عدّة: كتابات جان . بول بلموندو (1933)، وجيرار ديباردیو (1948)، مثلاً. للأول إصدارٌ (من بين مؤلّفات مختلفة له وعنه)، بعنوان «ألف حياةٍ أفضل من واحدة» («كتاب الجيب»، باريس، 2016). للثاني كتابان: «هذا حاصلٌ هكذا (Ca s'est fait comme ca)، و«بريء (Innocent). الأول صادر عام 2014 (XO Editions)، والثاني عام 2015 (le cherche midi). الممثّلان يتحرّران من كلّ ضغطٍ، إذْ يكتبان ما يحلو لهما، ويرويان ما يبغيان سرده، ويبوحان بمخبّأ لسبب يُدركانه ويرغبان في البوح به. يُشذّبانِ ما يعتبرانه غير صالحٍ للنشر. يُخفيانِ ما يصفانه، ضمناً، بالسرّيّ والحميميّ. يُؤلّفان النصوص بمبضع قاس، فيتحكّمان بالمرويّ المُنبثق مما يريدان كشفَه.

«ألغاز دولون» مختلفٌ كلّياً. أقوال «الساموراي» (أحد أبرز وأهمّ أدوار دولون. إخراج جان . بيار ملفيل، 1967) فيه مستندة إلى حوارات صحافية ولقاءات تلفزيونية موثّقة. أقوال آخرين موزّعة على العام (كتبٌ، حوارات، لقاءات) والخاص (لقاءات مع فيولي نفسه). هذا يُتيح مجالاً واسعاً لسرد ما يُمكن لصاحب الرواية إخفاءه أو التغاضي عنه، إنْ يكتب حكايته بنفسه (هذا النوع من الكتابة يحصل، عادة، مع صحافيين متمرّسين في تحويل الشفهيّ إلى مكتوبٍ متماسك).

برنار فيولي يتعرّض لحملةٍ شرسة من آلان دولون (1935)، بهدف منعه من تأليف كتاب عمّن يعتبر أنّ قصّة حياته «يستحيل سردُها، إلى درجة أنْ ما من صحافي قادر على كتابتها» (السيرة الحياتية لآلان دولون، مكتوبة باللغة الإنكليزية في إبريل/ نيسان 1999، ومنشورة على موقع Delon The Tribute). لن يحول هذا دون كتابة نصٍّ مُشوِّق بفضل أحداثٍ يختبرها الممثل والمنتج الفرنسي دولون، ويعيشها ويصنعها ويُشارك فيها ويشهد عليها. لن يحول هذا دون تأليفٍ، يلتزم سرداً أدبياً لوقائع، من دون بلوغ مرتبة الاتّهام أو النميمة أو التحريض أو الافتراء، فبرنار فيولي متمسّكٌ بسرد الحكاية وفقاً لمعطيات ولقاءات مع شهودٍ ومعارف، ولمستندات وحوارات (خاصة بالكتاب، أو منشورة في صحفٍ ومجلات وكتبٍ ومؤلّفات)، ولشهادات رسمية (تحقيقات ومُحاضر بوليسية وقضائية)، فدولون «صديقٌ» لمافياويين ومتورّطين بجرائم مختلفة، منها القتل.

الصداقة ثمينة جداً في حياة من تعشقه أكثر من ممثلة وامرأة. الأوسم بين جيله، والأجمل حضوراً، والمتمرّد الدائم، والذاهب بعيداً في خياراته الحياتية والسينمائية والمسلكية والعائلية، وإنْ تكن خيارات عدّة غير صائبة، بل مؤذية، فدولون لن يتهاون أبداً مع ابنه أنتوني (1964)، الراغب في صُنع منتوج يحمل اسمه (A.D)، وهذا يرفضه دولون الأب، فالاسم يعنيه ويخصّه، والحرفان يُحيلان إليه من دون سواه. مقتطفات من سيرة رجلٍ وعاشق وسينمائي وتاجر، في كتاب غنيّ بمعطيات ووقائع. كتابته تمنح شخصيته الأساسية تلك المساحة المطلوبة لتبيان أحداثٍ وتفاصيل، بعيداً عن كلّ إدانة أو حُكم، رغم تلميحاتٍ، مبطّنة ومباشرة أحياناً. قراءته سلسة. عالمه يتّسع لأزمنةٍ وحكاياتٍ تكشف بعض خفايا الرجل الفنان، ولشخصياتٍ مقرّبة منه رغم أفعاله المافياوية، ومواقف وآراء ومسالك تقول الكثير عنه.

آلان دولون: يعجز الساموراي عن منع سرد حكايته (فاليري هاش/ فرانس برس)

> مقتطفات من سيرة فنان في كتابٍ غنيّ وسلس ومُشوِّق للغاية

ندیم...